حديث الأنبياء (١٠)

يونس ذو النون

عليه السلام

اسم الكتاب: يونس ذو النون عليه السلام.

اسم المؤلف: إبراهيم أحمد قشطة.

الطبعة الثانية: ١٤٤٤هـ – ٢٠٢٢م.

يونس ذو النون

عليه السلام

أ/ إبراهيم أحمد قشطة

رفح – فلسطين
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

الطبعة الثانية
طبعة مزيدة ومنقحة

الإهداء

إلى والدي – قدّس اللهُ روحَه – الذي علمني أنَّ الرجال يصنعهم العرق.

إلى والدتي – رزقها اللهُ حسنَ الخاتمة – التي علمتني أنَّ الكلمة الطيبة شجرة وارفة يستظلّ تحتها الناس من قيظ الحياة.

إلى شيوخي وأساتذتي الذين علموني أنَّ الإسلام دين عظيم لو أن له رجال.

إلى زوجتي التي علمتني أنَّ مَنْ لا يحبّ صعود الجبال يعش أبد الدهر
بين الحفر.

إلى أُختيّ اللتين تعلمت منهما أنَّ الأخوة مشاعر جميلة حميدة.

إلى أبنائي أحمد وتسنيم ولمى ومحمّد الذين علموني أنَّ الأبوة أحلى المعاني.

المحتويات

المقدّمة

إنَّ الحمد الله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمّدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ (الأحزاب: ٧٠ - ٧١)

أمّا بعد:

فإنَّ أصدق الحَديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار، أعاذنا الله من البدع والضلالات والنيران.

وبعد:

هذا الكتاب العاشر من سلسلة (حديث الأنبياء)، والموسوم باسم (يونس ذو النون عليه السلام)، ويروي هذا الكتاب خبر يونس بن متّى، يروي قصّته مع قومه، وما كان من شأنه وشأنهم، وذلك من خلال فصلين:

حيث جاء الفصل الأوّل (قصة يونس عليه السلام) يتحدث عن قوم يونس عليه السلام، وعن دعوة يونس لقومه، وسبب غضبه عليهم، والمحنة التي وقعت له، وامتنان الله بالتوبة عليه ورفع الغمّ عنه، وكيف أبدل الله محنته إلى معجزة، وختم الفصل بذكر نعم الله على يونس الكريم.

أمّا الفصل الثاني (الفوائد المستفادة من قصّة يونس عليه السلام) تناول أهمّ الثمار المستطابة من قصّة يونس عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة وأتمّ التسليم.

الفصل الأوّل

قصّة
يونس - عليه السلام -

قال تعالى:﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩﴾

(الصافات: ١٣٩)

قصّة يونس – عليه السلام –

◎ تمْهيد:

يونسُ – عليه السلام – نبيٌّ من أنبياء بني إسرائيل الكرام، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم باسمه (يونس)[١] أربع مرّات في سورة النساء، والأنعام، ويونس، والصافات.

كما وذكره الله تعالى في القرآن الكريم بالوصف في موضعين:

الموضع الأوّل: في سورة الأنبياء حيث لقبه تعالى بذي النون[٢]، قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧)

(١) قرئ (يونس) بضم النون وكسرها: يُونُس، ويُونِس.

(٢) ذو النون أي: صاحب الحوت، وهو لقب يونس بن متّى لابتلاع النون إياه، والنون أي: الحوت، وجمع النون: نينات وأنوان.

الموضع الثاني: في سورة القلم حيث سمّاه تعالى بصاحب الحوت[1]، قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾﴾ (القلم: ٤٨)

قال الصابوني: " فيكون قد ذُكر في القرآن الكريم ست مرّات، أربع مرّات بالاسم ومرّتين بالوصف." (محمّد الصابوني)

◎ من قوم يونس عليه السلام؟

قوم يونس هم أهل نينوى، وكان مسكنُهم أرض الموصل بالعراق، ولم يحدثنا القرآن ولا السنّة الصحيحة عن أحوال أهل نينوى الحياتيّة، وإنما ذكرا أحوالهم الدينيّة التي كانت سائدة فيهم قبيل إرسال يونس إليهم.

◎ حال أهل نينوى:

انتشر في أهل نينوى الكفر والشرك، ورحمة بهم بعث الله تعالى يونس نبيًّا إليهم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ (الصافات: ١٣٩) أي: " إنّ يونس لأحد رسلنا المرسلين لهداية قومه." (محمّد الصابوني)

---

(١) قال أبو اسحاق: " صحب ذو النون الحوت أياماً قلائل فإلى يوم القيامة يقال له ذو النون، فما ظنّك بعبد عبده سبعين سنة يبطل هذا عنده لا يظنّ به ذلك؟!" (الجاحظ: ٢٠١٠)

◉ دعوة يونس – عليه السلام – لقومه:

أرسل الله تعالى يونس إلى قومه، فما كان من النبي الكريم يونس إلّا الاجتهاد في دعوة قومه إلى الله تعالى اجتهادًا عظيمًا، فدعاهم دعوة صادقة كريمة، ولكنهم – ويا للأسف – كذبوه وعاندوه لا سيما أشرافهم وكبراؤهم شأن أكثر أهل القرى، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ (سبأ: ٣٤)

فهل ييأس يونس؟!

لا، لم ييأس يونس، بل استمرّ يذكرهم ويعظهم ويدعوهم إلى الله تعالى، ولكنه لم يلق منهم إلّا إعراضاً ونفوراً، وقلوباً غلفاً، وآذاناً صماً.

◉ غَضبُ يونس – عليه السلام – على قومه:

لمّا طال على يونس هذا الحال المزعج مع قومه، خرج من بينهم غضباً عليهم بسبب كفرهم لأجل الله تعالى، وذلك قبل أنْ يأمره ربُّه بالخروج من بينهم، قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا﴾ (الأنبياء: ٨٧)

تنويه مهم: يونس – عليه السلام – ذهب مغاضباً على قومه وليس مغاضباً على ربّه؛ لأنَّ مغاضباً على ربّه معصية لا تليق بالعلماء الداعين المجتهدين، فما بالك بالأنبياء العاملين الأكرمين.

قال الرازي: " لا يجوز صرف المغاضبة إلى الله تعالى؛ لأنّ ذلك صفة مَنْ يجهل كون الله مالكاً للأمر والنهي، والجاهل بالله لا يكون مؤمنًا فضلاً أن يكون نبيًّا، ومغاضبته لقومه كانت غضباً لله." (محمّد الصابوني)

هكذا خرج يونس من نينوى وهو يظنّ أنّ الله لن يعتب عليه ذلك، قال تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ (الأنبياء: ٨٧) أي: فظنّ يونس أنّ الله تعالى لن يؤاخذَه على هذا الخروج، ولن يضيقَ عليه الأرض بما رحبت بسبب تركه لقومه وهجرته لهم قبل أنْ يؤمر بذلك، والفاء في (فظنّ) الفاء الفصيحة.

ونختم هذه النقطة بهذا التصحيح المهم: حيث فُسِرَ قوله: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ (الأنبياء: ٨٧) بأنّ إبليس استزله، حتى وقع في ظنّه أن الله لن يقدر عليه بمعاقبته.

قال القرطبي: " وهذا قولٌ مردودٌ مرغوبٌ عنه لأنّه كُفْرٌ."

(القرطبي: ٢٠٠٢)

وروي أن ابن عباس دخل على معاوية، فقال له معاوية: " لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة، فغرقت فيها فلم أجد لي خلاصاً إلّا

بك، فقال: وما هي؟ قال: يظنُّ نبيُّ الله يونس أن لن يقدر الله عليه؟ فقال ابن عباس: هذا من القَدَر لا من القُدرة." (محمّد الصابوني)

وقد قال الحسن: " وهو من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ (الرعد: ٢٦) أي: يضيق الرزق على من يشاء، وكقوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ (الطلاق: ٧) أي: من ضيق عليه رزقه." (القرطبي: ٢٠٠٢)

◎ كشف العذاب عن قوم يونس:

قوم يونس لمّا رأوا خروج يونس من بين ظهرانيهم، ولمّا تحققوا من أخطائهم، عندها قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة، فندموا على ما كان منهم إلى نبيّهم، ورجعوا بالتوبة إلى ربِّهم.

ولك أن تتخيّل مشهد توبتهم هكذا: صراخ وعويل، تضرّع وتمسكن، بكاء وأنين، دعاء من الرجال قبل النساء.

عند ذلك كشف الرحمن الرحيم بمنّته ورأفته، وحوله وقوّته عنهم العذاب الأليم، ورفع عنهم العقاب القريب، الذي قد اتصل بهم سببه، ودار على رؤوسهم رحى بدايته!

قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ (يونس: ٩٨) أي: هلّا سمعت عمّن سلف من الأمم والقرون أن هناك قرية آمنت بكاملها؟!

الجواب: لا، لم يقع ذلك قطّ[1]، ما عدا قوم يونس فقد آمنوا كلهم فَكشف عنهم العذاب، قال تعالى: ﴿إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ (يونس: ٩٨) أي: لم تؤمن قريةٌ بجميع أهلها سوى قرية يونس، فقد آمن جميع أهلها، فكشف عنهم العذاب، وأخرناهم إلى انتهاء آجالهم.

قال القرطبي: " ومفهوم من معنى الآية نفي إيمان أهل القرى، ثم استثنى قوم يونس، فهو بحسب اللفظ استثناء منقطع، وهو بحسب المعنى استثناء متصل؛ لأنَّ تقديره: ما آمن أهل قرية (بأكملها) إلّا قوم يونس." (القرطبي: ٢٠٠٢)

تساؤل: هل سينفعهم هذا الإيمان في الدار الآخرة فينقذهم من العذاب الأخروي كما أنقذهم من العذاب الدنيوي؟

قال ابن كثير: " الأظهر من السياق، نعم والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾، وهذا المتاع إلى حين

(١) مصدق ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ (سبأ: ٣٤)

لا ينفي أن يكون معه غيره من رفع العذاب الأخروي، والله أعلم." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

○ يونس في عرض البحر:

نعود إلى يونس – عليه السلام – حيث لم يعلم بتوبة الله تعالى على قومه، فاستمرَّ في الخروج من البلدة، تاركاً وراءه قومه، وأخذ يهمُّ في السير مبتعداً عن قريته، حتى وصل إلى شاطئ البحر، فوجد سفينة على وشك السفر، فطلب من أصحابها أن يركبوه معهم على عجل.

قال تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ (الصافات: ١٤٠) أي: اذكر حين ذهب يونس بغير إذن الله تعالى، وركب السفينة المملوءة بالركاب والأحمال، وكونها مملوءة بالركاب والأحمال يدلُّ ذلك على ثقلها وأنها على وشكِ السفر.

قال المبرد: " أصل (أبق) تباعد، ومنه غلام آبق، وقال غيره: إنما قيل ليونس أبق؛ لأنّه خرج بغير أمر الله – عزّ وجلّ – مستتراً من الناس." (القرطبي: ٢٠٠٢)

الحاصل: أبحرت السفينة، ولمّا توسطت البحر ثقلت بما فيها وكادوا يغرقون، ولك أن تتخيّل حال ركاب السفينة، فقد ضربهم الخوف والهلع، فظنّوا أن ذلك بسبب حمولة السفينة الزائدة، فأخذوا يرمون بضاعتهم في البحر بدون وعي، غير أن السفينة ظلّت على حالها، فقرروا رمي واحد منا في البحر!!

ما الذي دفعهم ليقرروا ذلك؟

قال الطبري: " إن يونس – عليه السلام – لمّا ركب في السفينة أصاب أهلها عاصف من الريح، فقالوا: هذه بخطيئة أحدكم! فقال يونس وعرف أنه هو صاحب الذنب: هذه خطيئتي أنا فألقوني في البحر! وأنهم أبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم." (القرطبي: ٢٠٠٢)

وما ذكره ابن جرير – رحمه الله – فيه نظر، ويظهر أنه مأخوذٌ من الإسرائيليّات.

وقال الصابوني: " قال الملاحون: ههنا عبد أبق من سيده، ولا بدّ لنجاة السفينة من إلقائه في الماء لتنجوَ من الغرق."

(محمّد الصابوني)

وما ذكره الصابوني – رحمه الله – أيضًا فيه نظر.

على كل حال استقرَّ رأيُهم أن يرموا واحداً منهم، والله أعلم لِمَ قرَّروا ذلك؟!

ولكنهم – بعد اتّخاذهم هذا القرار الخطير – وجدوا أنفسهم أمام معضلةٍ صعبةٍ، من الذي سيلقونه؟!

وبعد أخذ وردّ اهتدوا إلى إجراء قرعة فيما بينهم، فمن تقع عليه القرعة يكون هو المُلقى من السفينة أيًا كان، وجرت القرعة، وكان من بين المقترعين – بالطبع – يونس عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَسَاهَمَ﴾ (الصافات: ١٤١) أي: قارع يونس معهم، فكانت النتيجة: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ (الصافات:

١٤١) أي: كان من المغلوبين بالقرعة حيث وقعت عليه، وكان هذا ممّا قدّره الله تعالى.

زيادة وتفصيل:

١. هل أجريت القرعة عدّة مرّات؟

ذكر المفسرون أنه لمّا وقعت القرعة على يونس، سُقِطَ في أيدي ركاب السفينة، فلم تسمح أنفسُهم بذلك، فأعادوا القرعة ثلاث مرّات، وفي كل مرّة كانت القرعة تقع على يونس.

وهذا الذي ذكره المفسرون لا دليل عليه من القرآن ولا من السُّنّة الصحيحة؛ لذا الصواب أن القرعة جرت مرّة واحدة، والله أعلم.

٢. هل يجوز إلقاء الآدمي في البحر؟

قال القرطبي: " الإقراع على إلقاء الآدمي في البحر لا يجوز، وإنما كان ذلك في يونس وزمانه مقدّمة لتحقيق برهانه، وزيادة في إيمانه، فإنه لا يجوز لمن كان عاصياً أن يُقتل، ولا يرمي به في النار أو البحر، وإنما تجري عليه الحدود والتعزير على مقدار جنايته، وقد ظنّ بعض الناس أن البحر إذا هال على القوم اضطرّوا إلى تخفيف السفينة، وأن القرعة تضرب عليهم، فيطرح بعضهم تخفيفًا، وهذا فاسدٌ، فإنها لا تخفُّ برمي بعض الرجال، وإنما ذلك في الأموال، ولكنهم يصبرون على قضاء الله تعالى." (القرطبي: ٢٠٠٢)

ويشبه هذا الاعتقاد ما كان عند المصريين في زمن الفراعنة، فلمّا فتحت مصر أتى أهلها عمرو بن العاص وكان لها أميراً، فقالوا: أيها الأمير، إن نيلنا لا يجري إلا بسُنّة، قال: وما ذلك؟ قالوا: إذا كانت اثنتا عشرة ليلة خلت عن هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها، فأرضيناهما، وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها في هذا النيل إلى آخر القصّة التي ذكرها ابن كثير في تفسيره.

◎ وقفة وتأمّل:

أكثر ما يجذب النظر في واقعة القرعة أن الله تعالى لم يثرب أو يعنف أصحاب السفينة الذين ألقوا يونس في البحر، بل إن أصحاب السفينة تدلُّ سياقات القصّة القرآنيّة من محالها على أنهم كان فيهم خَيريّة وعدل وإنصاف، حيث احتكموا إلى إجراء قرعة لتكون الفاصلة فيمن يلقى، حتى لا يظلم فقير ويجامل غني، وحتى لا يتخلص من ضعيف من أجل قوي!

ولعلَّ هذه الواقعة لو حدثت في زماننا لوجدتَ آلاف المغردين والمتشدقين – ممّن لا همّ لهم إلّا حبّ القول والظهور – وقد ملأوا الدنيا والفضاء الأزرق بصور وتفسيرات وتحليلات حول جريمة هؤلاء الذين كانوا على متن السفينة، ولوجدتهم يظهرون أفراد السفينة فردًا فردًا على أنهم قتلةٌ مجرمون وخارجون عن الإنسانيّة ومارقون من الدين والوحدانيّة!

ولكن الحقيقة غير ذلك!

فعندما أحسّ أصحاب السفينة بالغرق اهتدوا إلى فكرة تخفيف الحمولة من البضائع والأفراد، فتنازل هؤلاء الخيرون عن بعض قيمهم الإنسانيّة بهدف حماية الفرد والجماعة، فما قاموا به ليس خيانة وجريمة ووحشيّة، إنما هي حكمة وأمانة ووطنيّة؛ لذا قد تبدو لنا بعض التصرفات أو السلوكات خاطئة في ظاهرها، فلا تعجل عليها بالحكم، فقد يكون في باطنها الخير والصواب والحكمة.

قال السعدي: " عمل أهل السفينة دليل على القاعدة المشهورة: أنه يرتكب أخف الضررين لدفع الضرر الذي هو أكبر منه، ولا ريبَ أن إلقاء بعض أحمالهم كان فيه ضرر، ولكن عطب الجميع إذا لم تلق أحمال بعضهم أعظم." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

- **يونس في بطن الحوت:**

وقعت القرعة على يونس، فكانت القرار: إلقاء يونس في عرض البحر، وبالفعل أُلقي يونس في بحر لجي هائج، أخذ يونس يصارع الأمواج، ويحاول النجاة، وفي أثناء ذلك الموقف العسير إذ به يزداد صعوبة عليه أكثر وأكثر، حيث بعث الله تعالى حوتاً حقيقيًّا عظيماً فالتقمه، فصار وحيدًا إلّا من رعاية الله وحفظه.

قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ (الصافات: ١٤٢) أي: " فابتلعه والتهمه الحوتُ وهو آت بما يلام عليه من تخليه عن

المهمة التي أرسله الله بها، وترك قومَه مغاضباً لهم، وخروجه بغير إذن من ربّه."[١] (محمّد الصابوني)

هكذا أمر الله تعالى الحوتَ أن يبتلع يونس، ولكن ألّا يأكل له لحماً، ولا يُهَشِّم له عظماً، فيونس ليس له رزقاً؛ لذا مكث يونس في بطن الحوت سليماً حيًّا ما شاء الله أن يمكث.

وهذا أمرٌ معجزٌ باهرٌ، حيث إن يونس بالرغم من التصاقه بأحشاء الحوت إلّا أنه ظلَّ حيًّا سليمًا، إنها الحماية الربانيّة! والرعاية الإلهيّة! والمعجزة الفريدة السامية!![٢]

كم مكث يونس في بطن الحوت؟

قيل: كان التقامُهُ ضُحًى ثم كان لَفْظُهُ عَشيةً، وقيل: مكث فيه ثلاثة أيام، وقيل: سبعة أيام، وقيل: أربعين يوماً.

---

(١) قوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: أتى بما يلام عليه، أمّا الملوم: فهو الذي يلام استحقَّ ذلك أو لم يستحقّ، وقيل المليم: المعيب." (القرطبي: ٢٠٠٢)

(٢) يذكر أن الحوت لم يبتلع يونس، وإنما بقي في فمه، ويعللون ذلك بأن حوت يونس هو في الغالب من فصيلة الحوت الأزرق، والحوت الأزرق اليوم على ضخامته بلعومه لا يبتلع إلّا الكائنات الدقيقة؛ لذا إذا دخل في فمه أي شيء كبير لا يبتلعه؛ ومن هنا يُرجح أن الحوت لم يبتلع يونس، بل بقي محبوسًا في فمه، وممّا يعضد ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾ أي: لا هو قادر على بلعه ولا على مضغه؛ لأنه أهتم (أي ليس له لسان)، والله أعلم.

وهذه كلها أقوال مظنونة وغير محققة؛ لذا الصواب ردُّ علم هذا إلى علم الله تعالى.

○ لا إله إلّا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين:

صار يونسُ مكروبًا في بطن حوتٍ ضخمٍ عظيمٍ، وتحيطه ظلمات ثلاثة تحويطاً: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل، ولنعلم شدّة هذه الظلمات وحُلكتها هيا نسمع ما يقوله العلم اليوم: إذا نزل إنسان إلى عمق قريب من خمسين مترًا تحت سطح الماء أو أقل من ذلك لا يبقى من الضوء إلّا عشرة في المئة من الضوء الذي يراه في البداية فوق سطح الماء، وإذا نزل أكثر إلى ألف متر لا يبقى إلّا واحد من مئة من مقدار الضوء، أي: كيلو متر تحت سطح الماء يكون الضوء في هذا العمق بمقدار شمعة واحدة موازنة بقوّة ألف شمعة إذا كان الضوء فوق سطح الماء.

يا ألله!! هذا كل هذا الظلام عند عمق كيلو متر واحد، فما ظنّك بظلام عمق مئات الكيلو مترات؟! بل ما ظنّك وهو في بطن حوت؟!

على كل حال: وجد يونس نفسه في ظلمات ثلاثة، فاشتدّت عليه الكربة، وضاقت عليه الدنيا، فعلم أن ما أصابه كان تأديبًا ربانيًّا محفوفًا بالمعجزة، حصل له بسبب استعجاله وخروجه عن قومه مغاضباً لهم، وبدون إذن صريح من الله له، فما كان منه إلّا أن ألجأ ظهره إلى الرحمن الرحيم، فنادى ﴿وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ (القلم :

٤٨) أي: دعا ربَّه وهو في بطن الحوت وقلبه يكاد يتفجر غمًّا، لِما حدث له مع قومه، ولِما أصابه من بلاء عظيم وهو في بطن الحوت.

وتأمّل: جاء قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ حالًا على هيئة جملة اسمية؛ لتدلّ على ثبات غمّه، وكأنّه في حال من الحبس لا يرجى لمثله نجاة ولا سراح، وكأن هذا تَمْهيد بديع للامتنان على يونس بالنجاة والخلاص.

فما كان من يونس في هذا الموقف العصيب إلّا أن قال: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧) أي: أن لا إله إلّا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين لنفسي، فاكشف ما بي من محنة وكربة.

ولنا وقفات مع دعاء يونس:

الوقفة الأولى: جاء دعاء يونس على هيئة توسل، حيث توسل يونس بالتوحيد قائلًا: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ وهذا يدل على أن أعظم ما يتوسل به العبد هو التوحيد.

الوقفة الثانية: الظلم محال في حق الله، ولمّا قد يقع في ذهن بعض من لا علم له أنه ربما تكون عقوبة يونس جائرة، فقال يونس: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ أي: تنزيه وتقديس لله تعالى، وتتضمن هذا التنزيه

من يونس تعظيم الله تعالى، أي: أنت يا ألله مقدّسٌ ومنزّهٌ عن عقوبتي بغير إجرام مني، فأنا الظالم لنفسي.

الوقفة الثالثة: قال يونس: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فهاهنا يعترف يونس بالذنب، وهذا يتضمن طلب المغفرة، فالدعاء قد يكون بصيغة الطلب كقولك: يا ربّ اغفر لي، وقد يكون بصيغة الإخبار كقول يونس: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وقد ناسب حال يونس الإتيان بصيغة الإخبار وهي الاعتراف، بدلًا من صيغة الطلب المباشر؛ لاستشعاره أنه مسيّئٌ ظالمٌ، وأنه هو الذي أدخل الضرَّ على نفسه، فذكر الاعتراف بالظلم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى جاء قول يونس بصيغة الإخبار بدلًا من صيغة الطلب من باب قول الشاعر:

أَأَذْكُرُ حاجَتي أمْ قَدْ كَفاني * * * حَياؤُك إنَّ شيمَتَكَ الحَياءُ
إذا أَثْنى عَليكَ المَرْءُ يَوْمًا * * * كَفاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّناءُ

ولله درُّ دعاء يونس هذا!!

لذا جدر بما روي عن النبي: " **دعوةُ ذي النونِ إذ دعا وهو في بطنِ الحوتِ (لا إلهَ إلّا أنتَ سبحانَك إنّي كنتُ من الظالمين)، فإنه لم يدعُ بها رجلٌ مسلمٌ في شيءٍ قطَّ إلّا استجابَ اللهُ له.**"

(رواه الترمذي: ٣٥٠٥)

وروي عن سعد بن مالك: سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: **اسمُ اللهِ الذي إذا دُعِيَ به أجابَ، وإذا سُئِلَ به**

أعطى، دعوة يونسَ بن متّى، قال: فقلتُ يا رسولَ الله، هي ليونسَ خاصّة أم لجماعة المسلمين؟ قال: هي ليونسُ خاصّةً، وللمؤمنين عامّةً إذا دعوا بها، ألم تسمعْ قولَ اللهِ تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧)، **وفي هذه الآية شَرَطَ اللهُ لمن دعاهُ بها وهو قوله:** ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٨)"

(رواه ابن جرير الطبري: ٢٠٠٢)

الحاصل: خرجت هذه الاستغاثة من قلب مكروب محزون إلى ربّ السموات والأكوان، فما كان من الله العزيز الرحيم إلّا ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّ﴾ (الأنبياء: ٨٨) أي: استجبنا ليونس ونجيناه من الضيق والكرب اللذين ألمّا به وهو في بطن الحوت، والسين والتاء في (فاستجبنا) للمبالغة في الإجابة، كما أن الفاء دليل على سرعتها.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٨) أي: كما نجينا يونس من هذه الكربة كذلك نخلّص المؤمنين من كربهم بما سبق من عملهم.

وربما تتساءل: ما السرُّ في سرعة إجابة الله دعاء عبده يونس؟!

الإجابة تجدها في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤﴾ (الصافات: ١٤٣- ١٤٤) أي: فلولا أنه سبّح الله في بطن الحوت، وقال ما قال من التهليل والتسبيح، والإذعان لله بالخضوع، والرجوع بالتوبة إليه، للبث في بطن الحوت إلى يوم القيامة، وصار بطن الحوت له قبراً له فلم ينج منه أبداً.

وقيل: فلولا أنه كان من قبل أخذ الحوت له (من المسبحين) أي المطيعين المصلين الذاكرين الله كثيراً للبث في بطنه إلى يوم القيامة، وكلا المعنيين صحيح.

وفي ذلك إشارة لطيفة إلى أن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر!!

قال القرطبي: " أخبر الله – عزّ وجلّ – أن يونس كان من المسبحين، وأنّ تسبيحه كان سبب نجاته، ولذلك قيل: إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر." (القرطبي: ٢٠٠٢)

قال الربيع: " لولا أنه كان قبل ذلك عمل صالح (للبث في بطنه إلى يوم يبعثون)." (القرطبي: ٢٠٠٢)

ومن هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم: " **مَنِ استطاعَ منكم أن تكونْ له خَبِيءٌ من عملٍ صالحٍ فليفعلْ**؟ (رواه ابن أبي شيبة: ٣٥٧٦٨)

قال القرطبي: " فيجتهد العبد ويحرص على خصلة من صالح عمله، ويخلص فيما بينه وبين ربّه، ويدّخرها ليوم فاقته وفقره، ويخبؤها بجهده ويسترها عن خلقه، يصل إليه نفعها أحوج ما كان إليه، ومن ذلك قصّة الثلاثة نفر الذين انحطت على فمِ الغار صخرة فانطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله فادعوا الله بها؛ لعلَّه يفرجها عنكم إلى آخر قصّتهم."

(القرطبي: ٢٠٠٢)

وبالجملة: " **احفظِ اللهَ يحفظْكَ، احفظِ اللهَ تجدْهُ أمامَكَ، تَعَرّفْ على اللهِ في الرخاءِ يَعرفكَ في الشدَّةِ**." (رواه أحمد: ٢٧٦٣)

على كل حال نختم الحديث عن نجاة يونس بالتأكيد على أنها كانت رحمة من الله، قال تعالى: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ (القلم: ٤٩) أي: لولا أن تداركته رحمة الله، فماذا سيكون؟! ﴿لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾ (القلم: ٤٩) أي: " لطرح في الفضاء الواسع الخالي من الأشجار والجبال وهو ملام على ما ارتكب، ولكن الله أنعم عليه بالتوفيق للتوبة، فلم يبقَ مذموماً." (محمّد الصابوني)

وهكذا حفظ الله تعالى عبده يونس، وراعى له حقّ تعبده، وحفظ له زمام ما سلف من الطاعة.

◎ نعم الله تعالى على عبده يونس عليه السلام:

أنعم الله على عبده يونس بنعم عظيمة سنية، وقد كانت أوّل هذه النعم على يونس إخراجه من بطن الحوت، حيث لفظه الحوت على الساحل بالأرض العراء، والعراء هو المكان القفر الذي ليس فيه شيء من الشجر أو الحجر بل هو عارٌ منهما، قال تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾ (الصافات: ١٤٥)

وكيف كان حال يونس عند خروجه من بطن الحوت؟

كان حال يونس عند خروجه من بطن الحوت سقيمًا، قال تعالى: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ (الصافات: ١٤٥) أي: ضعيف البدن وقيل كهيئة الفرخ ليس عليه شيء.

فكانت النعمة الثانية على يونس أن أنبت الله عليه شجرة من يقطين؛ لتكون له ظلًّا وأكلًا وفوائد أخرى جمّة، قال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ (الصافات: ١٤٦) أي: " وأنبتنا فوقه شجرة لتظله وتقيه حرّ الشمس، وهي اليقطين هي شجرة القرع ذات الأوراق العريضة." (محمّد الصابوني)

ويحتمل أن هذا اليقطين لم يكن موجودًا من قبل، فأنبته الله تعالى لأجله معروشًا ليحصل له فوائده، ويحتمل أنه كان موجودًا.

على كل حال: لِمَ اختار الله شجرة اليقطين (القرع) من بين الشجر لإنباتها على يونس بالذات؟!

بإمعان النظر نجد أن يونس عندما خرج من بطن الحوت كان يعاني ثلاثة أمور: العراء، والإعياء، والهزال.

فكان فضل الله عليه عظيماً بإنبات شجرة اليقطين بالذات من بين سائر الشجر؛ لما يأتي:

– ورق اليقطين كبير ظليل، وهذا مناسب ليونس ونعمة كبيرة له، حيث إن يونس وهو في العراء كانت تلفحه أشعة الشمس اللاهبة، فكان محتاجًا إلى ظلّ ظليل.

– ورق اليقطين في غاية النعومة، وهذا مناسبٌ – أيضًا – ليونس جدًّا؛ لأنّ يونس عند خروجه من بطن الحوت كان جلده لا يحتمل مسّه أي شيء خشن، فكان ورق اليقطين الناعم ملائمًا جدًّا لجلد يونس الحساس.

– ثمار اليقطين ليس لها رائحة تجذب الحشرات، وهذا مفيدٌ جدًّا ليونس؛ وذلك إنّ جلد يونس عقب خروجه من بطن الحوت كان لا يحتمل وقوع الحشرات عليه.

– اليقطين يؤكل ثمره في أوّل طلوعه إلى آخره، نيئًا ومطبوخاً، وبقشره وببزره أيضاً، وهذا مناسب ليونس المحتاج للغذاء السهل الإعداد.

- اليقطين سريع النمو، والإزهار، والإثمار، وهذا الصنف من النبات هو الذي يحتاجه يونس المحتاج للغذاء السريع.
- ثمار اليقطين تحتوي على المواد الغذائية اللازمة والمفيدة للجسم، ويونسُ محتاجٌ لهذا الغذاء المفيد.

ولله في خلقه شؤون!!

الحاصل: نجّى الله يونس من الكرب العظيم، وأعاد إليه قوّته ونشاطه القديم، ثم أنعم عليه بنعمة ثالثة عظيمة لا تضاهيها نعمة، ألّا هي نعمة تبليغ الحقّ والخير للناس أجمعين، فالأنبياء الربانيّون والدعاة المصلحون دعوة الناس إلى الخير تعد من أفضل نعم الله عليهم.

قال تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ (الصافات: ١٤٧) أي: أرسلناه بعد أن خرج من بطن الحوت، وعادت إليه عافيته إلى مئة ألف أو يزيدون.

وبذلك تمّت نعم الله تعالى على يونس بن متّى ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (القلم: ٥٠) أي: " فأصفاه ربّه واختاره لنفسه، فجعله من المقربين." (محمّد الصابوني)

ولله الأمر من قبلُ ومن بعدُ.

زيادة وتفصيل:

١. (أو) تستعمل غالباً للشكّ، وهذا على الله محال، فكيف جاء التعبير القرآني: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ (الصافات: ١٤٧)؟

ذُكر: (أو) بمعنى (بل أو الواو) والمعنى: أو يزيدون في نظرهم، فالشكّ إنما داخل في قول المخلوقين.

وذًكر: أن المعطوف بـ (أو) غير مفرد، إنما هو كلام مبين، وناسب أن يكون الحذف للإضراب.

وذُكر: " العرب تخرج الكلام المتيقن في صورة المشكوك بناءً على تصور المخاطب وظنّه، ومعنى الآية أي: أرسلناه إلى قوم هم من الكثرة بحيث لو رأيتهم لشككت، وقلت مئة ألف أو يزيدون عليهم، ومعلوم أن الله تعالى لا يخفى عليه عددهم."

(خالد السبت: ١٤٢١هـ)

الحاصل: حرف (أو) في كلام الله تعالى لا يدلّ على الشكّ، حيث إن الشكّ لا يتطرق بأي حال في كلام الله تعالى علّام الغيوب.

٢. كم مقدار الزيادة المقصودة في قوله: ﴿أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ (الصافات: ١٤٧)؟

اتّفق المفسرون على أنّ عدد من أرسل إليهم بعد خروجه من بطن الحوت مئة ألف لا محالة، أمّا الزيادة اختلف فيها على

أقوال، منها: هي عشرة آلاف، وقيل: هي عشرون ألفاً، وقيل: هي ثلاثون ألفاً، وقيل: بضعة وثلاثون ألفاً، وقيل بضعة وأربعون ألفاً، وقيل: سبعون ألفاً.

والصواب: عدم القطع بشيء من ذلك؛ لعدم ورود دليل شرعي صحيح عليها، فنردُّ ذلك إلى علم الله تعالى.

٣. أكان إرسال يونس إلى هؤلاء قبل ابتلاع الحوت أم بعده؟

اختلاف العلماء في ذلك على ثلاث أقوال:

القول الأوّل: إن رسالة يونس – عليه السلام – لهم كانت بعدما خرج من بطن الحوت، ويُنسب ذلك لابن عباس.

القول الثاني: إرساله إليهم كان قبل أن يبتلعه الحوت وحكي ذلك عن مجاهد.

القول الثالث: وقد حكاه البغوي، وهو: أنه أرسل إلى أمّة أخرى بعد خروجه من بطن الحوت، كانوا مئة ألف أو يزيدون.

والقول الأوّل هو الصواب، والله أعلم.

٤. ما المراد بقوله: ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؟

أي: من المفضلين في الأنبياء، وقد قال إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (الشعراء: ٨٣)، وفي ذلك إشارةٌ إلى أن الصلاح هو أصل الخير ورفيع الدرجات.

o o o o

الفصل الثاني

الفوائد المستفادة من
قصّة يونس – عليه السلام –

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ (يوسف: ١١١)

الفوائد المستفادة: من قصّة يونس – عليه السلام –

تمهيد:

قصة يونس كغيرها – من قصص الأنبياء والمرسلين – ليست للتسلية أو السمر وإنما لأخذ العبر والعظات، وللاقتداء بهؤلاء الأطهار الأتقياء الأنقياء، والسير على دربهم، فاطلاعنا على سيرهم، وما تحملوه من أذى في سبيل الله تقوية لعزائمنا، وتصحيح لهممنا، وتسلية لنا عما يصيبنا من اللأواء.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (يوسف: ١١١)

الفوائد المستفادة: من قصّة يونس – عليه السلام –:

١. المعاينة التي لا تنفع التوبة معها:

المعاينةُ التي لا تنفع التوبة معها هي التلبس بالعذاب كقصّة فرعون؛ ولذا جاء بقصّة يونس على أثر قصّة فرعون؛ لأنّ فرعون آمن حين رأى العذاب، فلم ينفعه ذلك، أمّا قوم يونس تابوا قبل ذلك، ويَعْضُدُ هذا قوله صلى الله عليه وسلم: " **إنَّ اللهَ يقبلُ توبةَ العبدِ ما لم يُغَرِغْرْ**." (رواه الترمذي: ٣٥٣٧)

والغرغرةُ هي الحشرجةُ، وذلك هو حال التلبس بالموت، وأمّا قبل ذلك فلا، ويكون معنى ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾ (يونس:

٩٨) أي: العذاب الذي وعدهم به يونس أنه ينزل بهم، لا أنهم رأوه عياناً ولا مخايلة، وعلى هذا لا إشكال ولا تعارض ولا خصوص.

وبالجملة كان أهل نينوى في سابق العلم من السعداء، وروي عن علي رضي الله عنه: " إن الحذر لا يرد القَدَر، وإن الدعاء ليرد القَدَر." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

٢. لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متّى:

صحَّ عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قوله: " **لا ينبغي لعبدٍ أنْ يقولَ: أنا خيرٌ من يونسَ بنِ متّى.**"

(رواه البخاري: ٣٣٩٥)

ويفهم من هذا الحديث أمورٌ:

الأمر الأوّل: تنزيه يونس من أوهام الأغبياء السفهاء الجهلاء الذين يقلّلون من شأنه عليه السلام.

قال النووي: " قال – صلى اله عليه وسلم – هذا الكلام زجراً عن أن يتخيّل أحد من الجاهلين من حطّ مرتبة يونس – عليه السلام – من أجل ما في القرآن العزيز من قصّته."

(النووي: ١٩٢٩)

وقال بعض العلماء: والسبب في قول النبي صلى الله عليه وسلم: هو أنه قد يتبادر إلى ذهن بعض المسلمين عندما يقرأ قول الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ

نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾ (القلم ٤٨ –٤٩)

أن ذلك نقص في حقّ يونس عليه السلام، مع أن الله تعالى عندما قصَّ علينا قصّته قال في بدايتها: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ (الصافات: ١٣٩) يعني: استقبلوا قصّته على أنه نبيٌّ مرسلٌ.

الأمر الثاني: لا ينبغي لأحد أن يفضّل الرسول على يونس بن متّى عليهما الصلاة والسلام، كما ورد في بعض الأحاديث: " **لا تُفضلوني على الأنبياءِ ولا على يونسَ بنِ متّى.**" فكأنه يقول صلى الله عليه وسلم: اتركوا مقاييس المفاضلة لله تعالى، فهو الذي يفاضل بين خلقه، مَنْ أنتم حتى تفاضلوا؟!

وهذا من باب الهضم والتواضع منه صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وإلّا فهو أفضل الخلق أجمعين.

وقال النووي : " إنه – صلى الله عليه وسلم – قال هذا قبل أن يعلم أنه أفضل من يونس، فلمّا علم ذلك قال: أنا سيد ولد آدم، ولم يقل هنا أن يونس أفضل منه أو من غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه." (النووي: ١٩٢٩)

الأمر الثالث: في هذا الحديث شرفٌ كبيرٌ وفضلٌ عظيمٌ ليونس بن متّى عليه الصلاة والسلام.

٣. بين دعوة يونس – عليه السلام – وفرعون:

استجاب الله ليونس – عليه السلام – عندما نادى في الظلمات، ولم يستجب لفرعون عندما قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠﴾ (يونس: ٩٠)

قال الرازي: " إن يونس كان قد سبقت له المعرفة مع هذه الكلمة (الدعاء)، فَسَبْقُ المعرفة إعانة على قبولها منه.

أما فرعون فقد تقدم له سَبْق النكرة؛ وذلك لأنه كان ينادي بربوبية نفسه، قال تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ (النازعات: ٢٣ –٢٤)

أما يونس فإنه ينادي بربوبية الله سبحانه، قال تعالى: ﴿إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ٤٨﴾ (القلم: ٤٨)، وقال: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣﴾ (الصافات: ١٤٣)، وهذا ينبهك على أن من حفظ الله في الخلوات فإن الله يحفظه في الفلوات." (الفخر الرازي)

تتمة فقهية

حكم القرعة:

القرعة كانت معمولاً بها في شرع من قبلنا، وجاءت في شرعنا على ما ذكر في سورة آل عمران، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٤٤﴾ (آل عمران: ٤٤)

قال القرطبي: " قال ابن العربي: وقد وردت القرعة في الشرع في ثلاث مواطن:

الأول: كان النبي – صلى الله عليه وسلم – إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه.

الثاني: أن النبي – صلى الله عليه وسلم – رفع إليه أن رجلاً أعتق ستة أعبد لا مال له غيرهم، فأقرع بينهم، فأعتق اثنين وأرق أربعة.

الثالث: أن رجلين اختصما إليه في مواريث قد درست، فقال: اذهبا وتوخيا الحق، واستهما وليحلل كل واحد منكما صاحبه.

فهذه ثلاث مواطن، وهي: القسم في النكاح، والعتق، والقسمة، وجريان القرعة فيها لرفع الإشكال وحسم داء التشهي.

واختلف علماؤنا في القرعة بين الزوجات في الغزو على قولين، الصحيح منهما الإقراع، وبه قال فقهاء الأمصار، وذلك أن السفر بجميعهن لا يمكن، واختيار واحدة منهن إيثار، فلم يبق إلا القرعة.

وكذلك في مسألة الأعبد الستة، فإن كل اثنين منهما ثُلث، وهو القدر الذي يجوز فيه العتق في مرض الموت، وتعينهما بالتشهي لا يجوز شرعاً، فلم يبق إلا القرعة.

وكذلك التشاجر إذا وقع في أعيان المواريث، لم يميز الحق إلا القرعة، فصارت أصلاً في تعيين المستحق إذا أشكل.

وقال: والحق عندي أن تجري في كل مشكل، فذلك أبين لها، وأقوى لفصل الحكم فيها، وأجلى لرفع الإشكال عنها، ولذلك قلنا: إن القرعة بين الزوجات في الطلاق كالقرعة بين الإماء في العتق."

(القرطبي: ٢٠٠٢)

خاتمة الكتاب

الدعوةُ إلى الله مهمةٌ شاقّةٌ ومضنيةٌ، ومليئةٌ بالصعاب والعقبات، ولمّا كان هذا شأنها ضرب الله للناس عامّة وللدعاة خاصّة مثلاً بليغاً في أهمّية الصبر على مشاقِّها وتحمل لأواءها.

فكانت قصّة يونس الذي أرسله الله إلى أهل نينوى بالعراق، فدعاهم ونهاهم، فلمّا عاندوه غضب عليهم لأجل الله، فاستعجل وخرج من بينهم بدون إذن من ربّه تعالى.

وأثناء خروجه من بين ظهرانيهم قذف الله التوبةَ في قلوب قومه بعدما اتّصلَ العذاب بهم، ودار رحاه فوق رؤوسهم.

لم يعلم يونس بخبر توبة الله على قومه؛ لذا استمرَّ في الخروج من البلدة، حتى وصل إلى البحر، فقدر الله تعالى أن يركب إحدى السفن، فكان الأمر الإلهي بأن ألقي في بحر لجي هائج، ثم التقمه حوتُ عظيم.

صار يونسُ في بطن حوتٍ كبيرٍ، بعدما كان يصارع بحرًا خطيرًا، فكانت الثانيةِ أشدّ من الأولى، فعل الله به ذلك ابتلاء له ولرفع درجته، ورحمة من الله! نجّى الله يونس من بطن الحوت وذلك لأنه كان قبل ذلك من المسبّحين العاملين الخَيّرين، وأنعم عليه بنعمٍ عظيمةٍ، واجتباه فجعله من الصالحين؛ وذلك لْيُعَلّمَ اللهُ الناس درساً مهماً ألّا هو أن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر.

o o o o

قائمة المراجع:

١. إسماعيل بن كثير الدمشقي، تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، دار التراث العربي للطباعة والنشر، ١٩٨٧ م.

٢. إسماعيل بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، مكتبة الصفا، ٢٠٠٢ م.

٣. الفخر الرازي، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي ببيروت، بدون سنة نشر.

٤. خالد بن عثمان السبت، قواعد التفسير جمعاً ودراسة، دار ابن عفان، ١٤٢١ هـ.

٥. عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان اليمامة، دار اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع ٢٠٠٠ م.

٦. عبد الرحمن بن ناصر السعدي، قصص الأنبياء فصول في ذكر ما قص الله علينا في كتابه من أخبار الأنبياء مع أقوامهم، أضواء السلف، ٢٠٠٢ م.

٧. عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، مكتبة ابن سينا، بدون سنة نشر.

٨. محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار الصابوني، بدون سنة نشر.

٩. محمد علي الصابوني، النبوة والأنبياء، بدون دار نشر، وبدون سنة نشر.

١٠. محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الحديث، ٢٠٠٢ م.

١١. يحيى بن شرف بن مري النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، الدار الثقافية العربية، ١٩٢٩ م.